

حركة الشهيد القسام واخوانه

ظروفها وأثرها في حركة الثورة الفلسطينية

للأستاذ محمد عزة دروزة

كانت حركة الشهيد القسام وعصبته الأبرار ظاهرة هامة من ظواهر تطور الكفاح الوطني في فلسطين .

ولقد كان بلاء فلسطين مزدوجاً بالاستعمار الانكليزي والصهيونية . ولقد نتج عن هذا الازدواج تيارات متعددة بل ومتناقضة ايضا في صدد كفاح البلائين .

صعيد الحكم والتشريع يساعد على تعثر الحركة الصهيونية من جهة ويحفظ للعرب مركزهم المتفوق من جهة أخرى .

ولقد كانت الدسائس الانكليزية واليهودية والمطامع الشخصية والانفعالات العاطفية من عوامل وجود هذه التيارات المتضاربة . فقد قام تعاطف متبادل بين الانكليز وكثير من ابناء الطوائف المسيحية وبنوع خاص البروتستانتية منها . وكان هناك موظفون وطالبو وظائف ومناصب من العرب المسلمين والمسيحيين ولا يمكن ان يستمر وجود الموجودين في الوظائف ويتحقق مطمح المستوظفين منهم الا بالتعاون والتعاطف مع الانكليز . وكان هناك ملاكون عندهم اراضي زائدة وغير عامرة . واليهود يتقدمون لشرائها باسعار كانت مغرية .

من ذلك تيار كان يرى في الصهيونية الخطر الاشد من حيث انها تهدف الى مزاحمة الشعب العربي في وطنه وتهديده في وجوده واقامة دولة على انقاضه وان من الواجب ان يكون الجهاد الاعظم موجها اليها . وتيار كان يرى ان هذا الجهاد لا يمكن ان يؤدي اكله الا بمسايرة العرب للانكليز وجذبهم نحوهم واقناعهم بان يكونوا هم لا اليهود حلغاءهم . وتيار يرى واجب الكفاح ضد البلائين معا مهما كلف الثمن . وتيار يسلم بهذا ولكنه يقول : ان العرب يعجزون عند ذلك ولا بد لهم من التزام كفاح قوي وعلني ضد أحدهما وكفاح خفي ضد ثانيهما . وكان هناك تيار يهون من شأن الصهيونية ويرى فيها وهما ويرى ان التعاون مع الانكليز كفيل بابقاء الصهيونية في نطاق الوهم من جهة ، وتحقيق بعض المكاسب على

يحفظوا التوازن من جهة ويجعلوا هذه الفئات لا تقف موقف العداء الصريح الشديد من جهة أخرى .

وتنبه على أن هذه التيارات إنما كانت تجري بين فئات معينة من عاداتها وطبيعتها تكونها أن تكون على السطح والوجه . وإن الجمهور العربي الاعظم وبخاصة المسلم مع فريق كبير من فئاته القيادية الواعية كانوا على الخط السليم من وجوب العداء للانكليز والصهيونية معا ومن وجوب كفاحهما . غير أن هذا لم يكن ليمنع تلك الفئات من التأثير الإيجابي في الجماهير . بحيث أدى ذلك إلى أن يدور الكفاح الفلسطيني طيلة العقد الثالث في نطاق العمل والنضال في الدرجة الأولى ضد النمو والتوسع والتسلط اليهودي . وفي سبيل إقامة حكم نيابي يستطيع أن يمنع ذلك أولا ويتطور إلى معاهدة استقلالية مع الانكليز في ظل وجودهم ومركزهم الممتاز على غرار ما كان يسعى إليه المصريون والعراقيون والسوريون بحيث أنهم حينما يحصلون على ذلك تكون أكثرية العظمى التي لم تكن تنزل في آخر العقد الثالث عن ١٥٪ ضامنة لهم الاستمرار في ذلك وضمانة لبقاء الصبغة العربية لفلسطين : وظل هذا ما يطلبونه من الانكليز ويقومون في سبيله بالمظاهرات ويعقدون الاجتماعات ويقدمون الاحتجاجات ويرسلون الوفود وكان يرافق ذلك في هذه المرحلة انفجارات ضد اليهود في المناسبات لتعبير عن سخط العرب

وأنشأ اليهود جمعية باسم جمعية السلام بين العرب واليهود لتهدوين أهداف اليهود وتجريبها للعرب على أنها أهداف سلام وتعايش ووافق مع العرب . وفسر الانكليز وعد بلفور بأنه ليس من أهدافه فرض دولة أو رعوية يهودية ولا غمط حقوق العرب ولا إخلال بمركزهم . وكان في الوعد ثم في صك الانتداب تحفظات مطمئنة لمن يريد أن يفنع بذلك التفسير . ولم تكن الوقائع قد تسارعت لتكذب ذلك .

ولقد ظلت الهجرة اليهودية والاقتصاديات اليهودية متعثرتين طيلة العقد الثالث من القرن فكان هذا مما ساعد على تثبيت وهمية الصهيونية . . وأغرى الانكليز أولياءهم من المسلمين والمسيحيين الذين كان منهم رؤساء بلديات وأعضاء لجان فخرية وأصحاب أراض يريدون لها البيع ومخاتير قرى وأصحاب مصالح متنوعة أخرى وموظفون كبار يهتمهم الاحتفاظ بمناصبهم ووجاهتهم .

وإنشاء أسر اقطاعية يطمحون إلى احتلال مناصب رئيسية في الحكومة الخ الخ بشعار (خذ وطالب) ليقودا تيار التعاون معهم . وعقدوا الآمال الإيجابية على هذا التعاون . وأغرى الانكليز بالإضافة إلى ذلك بعض الأسر الوجيئة البارزة على التنافس والبروز . وكان هذا يتلزم أو يقتضي التزلف إليهم وأغراء بعض الفئات بمسايرة المتزلفين حتى

آمال العرب ومطالبهم بمعرض الحائط .

وحينئذ رفعت الفئات الواعية من العرب الذين كانوا يرون وجوب مكافحة الانكليز واليهود معا شعار (الانكليز رأس البلاء) وصاروا يدعون الى توجيه النضال ضدهم مباشرة وينددون بالذين يسايرون الانكليز بأية حجة وعذر . وقام حزب الاستقلال على أساس هذا الشعار وصار يدعو الى ترسيخه والاندماج فيه وتوسيع نطاقه . وادى هذا الى مواقف ايجابية حيث ارتفعت الاصوات لعدم التعاون مع الانكليز وطلب استقالة رؤساء واعضاء البلديات واللجان المشتركة ومقاطعة الحفلات الحكومية كخطوة اولى يعقبها خطوات الامتناع عن دفع الضرائب واستقالة الموظفين الخ . وقد عقد اجتماع عام في يافا لهذا الامر شهده من جميع الفئات والتيارات وتقرر فيه السير بالخطوات مما فيه دلالة على تأثير الدعوة الجديدة نتيجة لموقف السلطات الانكليزية المتحيزة الخطرة المتراجعة التي لم يجرا اولياؤها على تبريرها ثم قررت اللجنة التنفيذية للمؤتمر الوطني السابع العام التي كانت تضم ممثلين عن جميع التيارات أيضا القيام بمظاهرات احتجاجية ضد السلطات بدون ترخيص ونفذ القرار في القدس في اواسط عام ١٩٣٣ وسار في المظاهرة اعضاء اللجنة وعدد كبير من الزعماء فضلا عن جماهير الشعب العظيمة ووقع اصطدام بين

على ما يبدو من السلطات الانكليزية من مسيطرة لمطامح اليهود في الهجرة او التشريع او الحماية او المساعدة على حيازة الاراضي العربية وارااضي الدولة واخراج مزارعيها منها وتشجيع المصنوعات والمشاريع اليهودية والاغضاء عن تسليح اليهود وتشكيلاتهم العسكرية .

ولقد ادى الكفاح هذا في هذه المرحلة الى نتيجة ايجابية نظريا في صدد المطلب الذي كان يدور عليه فيها بعد ثورة البراق في صيف عام ١٩٢٩ حيث قررت لجان التحقيق التي ارسلها الانكليز في سنة ١٩٣٠ ان غينا صارخا قد وقع على العرب اخل بالتحفظات التي تضحنها وعد بلفور وصك الانتداب وان الواجب يقضي بالتحويل عن ذلك وتلبية مطالب العرب بمنع بيع الاراضي لليهود لانه لم يعد يبقى في ايدي العرب اكثر من حاجتهم بل انما بقي منها اقل من هذه الحاجة وتحديد الهجرة لان البطالة كبيرة في البلاد ولا تستوعب مزيدا من العمال المهاجرين ثم بمنح البلاد حكما نيابيا . واصدرت الحكومة الانكليزية كتابا ايضا تعهدت فيه بالعمل بهذه التوصيات فوقفت الصهيونية موقفا صارما ضد ذلك حتى اجبرت الحكومة الانكليزية على التراجع عن وعدها . وصادف هذا وقت بروز هتلر وحركته ضد اليهود فاتسبع تراجعها الى ان انقلب الى فتح باب البلاد لسيل عارم من اليهود وضرب كل

المظاهرين والسلطات . ومع ذلك فان اللجنة التنفيذية بسائق من الحماس المتقد والشعور بالخطر والخطورة قررت اقامة مظاهرة مماثلة في يافا . وقامت المظاهرة فعلا وكانت اعظم جمهورا وحماسا من الاولى وتكرر الاشتباك بمقياس اوسع حيث استشهد وجرح العشرات واعتقل عدد كبير من قادة المظاهرة من اعضاء اللجنة التنفيذية وغيرهم . وادى كل هذا الى تنبه وتوتر شديدين ظل يشتد حتى انفجر بحركة عصبية الشهيد القسام رضي الله عنه وعنهم التي كانت قد بدأت قبل هذا الظرف بأمد ما .

فقد كان خطر الصهيونية والانسجام الانكليزي القوي معه قد اصبحا ملموسين من جميع الطبقات وبخاصة طبقة العمال الذين يجيء المهاجرون الجدد ليخطفوا اللقمة من افواههم . وكانت حيفا مركزا هاما من مراكز العمال العرب الذين كان كثير منهم من مشردي مزارعي القرى التي بيعت لليهود واجلوا عنها بمختلف الوسائل دون أن يلقوا من السلطات حماية مجدية . وكان لهؤلاء العمال حي خاص مساكنه من التنك والخشب . فأخذ يظهر من هذه الطبقة رجال جهاد منذ سنة ١٩٣٠ حيث أخذوا يقومون بغزوات جهادية على اليهود ومستعمراتهم في قضاء حيفا ثم كانت فيما بعد حلقات او خلايا جهادية متدبنة وسرية ضيقة النطاق محكمة التشكيل . كل فرد منها يجند نفسه بنفسه ويقومون

بأعمالهم باسم الجهاد . ولم تستطع السلطات ان تكتشف أسرار هذه الحلقات او الخلايا أو تحول دون غزواتها بالرغم مما بذلته من جهد وبالرغم من اعتقال بعض افرادها . فلما اخذ الخطر يتفاقم باتساع الهجرة وبيوع الاراضي دون أن يبدو من السلطات أي اهتمام لتوقيفه واخذ القلق يزداد في اوساط العرب ويثير سخطهم وخوفهم وكان ما كان من دعوات الى تشديد المكافحة ضد السلطات التي كان من نتائجها المظاهرات الدامية اخذت رغبة تلك الحلقات الجهادية تشتد في توسيع نطاق حركاتها وفي اعلان الجهاد على الانكليز واليهود معا فكانت عصبية القسام اول من خطا الخطوة الجديدة . وقد كان رحمه الله وطيب ثراه لاذقاني البلد ومن الرجال المتدينين وكان على صلة وثيقة ببعض اركان حزب الاستقلال . وكان متصلا باوساط العمال في حيفا وكانت روحه وعظاته منسجمة مع فكرة الجهاد ووجوبه . وكان بارعا في الوعظ نافذا به الى اعماق النفوس . فتخلق حوله افراد من الحلقات الجهادية ربما بلغ عددهم الخمسين . وقد اتفق هو ورهط منهم على فتح الباب فتجهزوا وخرجوا الى احراش يعبد في قضاء جنين وعلى طريق حيفا في تشرين الاول من عام ١٩٣٥ وكان عددهم عشرة وهم يوسف الزيباوي من قرية الزيب . وحنيفة المصري البلد . ونمر السعدي ومن غاية شفا عمرو .

واسعد المفلح من أم الفجعم . وحسن البايير من بركين . وأحمد عبدالرحمن جابر من عنتبا وعربي البدوي من قبلان . ومحمد اليوسف من سبسطية ومحمد الحلحولي من حلحول ومعروف الحاج جابر من يعبد وأخذوا يركزون أنفسهم ويدعون اخوانهم للانضمام اليهم . وشعرت السلطات بهذه الحركة الخطيرة فسارعت الى قمعها قبل تفاقمها وارسلت قوة مختلطة من انكليز وعرب الى الاحراش فطوقت العصبة . ولم يكن لهذه بد من الدخول في المعركة قبل الاوان ولو لم يكن أي تكافؤ في القوة والاستعداد للمعركة المفاجئة . وتبادلت القوتان النار واستشهد الشيخ عز الدين انقسام واثنان من رفاقه هما يوسف الزيباوي وحنيفة المصري وجرح اثنان هما نمر السعدي واسعد المفلح واعتقل الاحياء بما فيهم الجريحان . وكان ذلك يوم الاربعاء المصادف لتاريخ ١١ - ١٠ - ١٩٣٥ .

ولقد كان للحادث اثر بليغ في نفوس العرب . فاثار عواطفهم وأهاج اعصابهم بحدته وما انطوى فيه من خطورة واقدام وجدة . فقابلوه بمظاهر جياشة من الاكبار حتى لقد خشيت السلطات من هذه المظاهر وانزعجت ايما انزعاج . وبعد ان وصفت العصبة بالاشقياء عادت الى التهذنة ولم تذكرها بسوء . وسلمت جثث الشهداء لذويها وأغمضت العين عن الاحتفال بدفنهم فكان مشهد

رهيب اشتركت فيه وفود كبيرة وكان الحادث نموذجا جديدا للجهاد ومثلا عاليا على التضحية والاقدام مجردين من كل غرض او مأرب دنيوي وشخصي . وغدا اسم القسام وعصبته لا يذكر الا مع الفاظ التكريم والاحلال . وكان الحادث من الحوافز النفسية القوية للاحداث التي تلتها بعد اشهر قليلة حيث أعلن الاضراب العام في ٢٠ نيسان ١٩٣٩ الذي امتد ستة اشهر وانفجرت في اثنائه الثورة الكبرى على مرحلتين الاولى انتهت بتدخل ملوك العرب بناء على وعد الانكليز وكانت نهايتها بمثابة هدنة لم يلق بها سلاحهم واعتدوا انفسهم ظافرين منتظرين نتائج ذلك التدخل والثانية بعد صدور قرار تقسيم فلسطين في خريف عام ١٩٣٧ حيث استأنف العرب جهادهم الذي قوي واتسع وشمل كل فلسطين حتى غدت تحت سيطرة الثوار ريفها ومدنها وكبد الانكليز واليهود خسائر فادحة واجبر الانكليز على التراجع عن التقسيم والغائه وتسجيل استجابتهم لمطالب العرب في الكتاب الابيض الذي اصدره في خريف عام ١٩٣٩ والذي وعدوا فيه بوقف الهجرة وبيع الاراضي والوقوف في انشاء الوطن القومي عند الحد الذي وصل اليه واعتبار انفسهم انهم اتموا واجبهم الذي ارتبطوا به نحوه وانشاء حكم نيابي دستوري باكثرية عربية بتطور حتى يصل الى الاستقلال كما كان ذلك شأن مصر وسورية ولبنان والعراق .